

دراسة تحليلية لآراء النقاد المعاصرين حول آراء ابن سلام النقدية

أ.م.د. عبدالله حسيني

جامعة فرهنغيان/ طهران/ إيران

An analytical study of contemporary critics' views on Ibn Salam's critical views

Ass. Prof. Dr. Abdullah Hosny

University of Farhangian\ Tehran\ Iran

dr.hosseinyiran@gmail.com

المُلخَص:

في تاريخ النقد الأدبي الحديث ستّة كتب حسب تاريخ الظهور تتناول النقد بالتأريخ والمناقشة وكان طبيعياً لهذه الكتب الستة ان تتعرّض لمحمّد بن سلام.

يهدف هذا المقال عن استخلاص الآراء النقدية التي قيلت في هذه الكتب الستة عن ابن سلام وما أخذ عليه من النقد، ومن ثم تحليل ما تتناوله هذه الكتب بالنقد والمناقشة، ومن أهمّ النتائج التي توصل إليها هذا المقال:

إنّ ابن سلام لم ينل من قبل النقاد المعاصرين ما وجب أن يناله، لم يتعرّض احمد امين كثيرا لابن سلام وكذا لانجد دراسة له عند طه الحاجري. غير أنّ محمد الغمراوي لقد انصاف لابن سلام ويقدم منهجه اساسا على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء وكتاب في الأدب الجاهلي لطف حسين.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي، تاريخ النقد الأدبي، ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء.

١- المقدمة:

محمّد بن سلام الجمحيّ من علماء أواخر القرن الثاني من الهجرة وأوائل الثالث، أحد الاخباريين والرواة، نحويّ ولغويّ، وهو يُعدّ احد كبار نقدة الشعر، ألف كتابا او كتابين في طبقات الشعراء. مات سنة ٢٣١ هـ. لقد رأينا اللغويين تكلموا كثيرا في جمال الشعر الفني وفي مذاهب الشعراء وفي منازل بعض منهم وفي الأشعار التي تُستند الى غير قائلها وفي النظر الى الأدب نظرات متّصلة ببيئته وصاحبه او الحالة الاجتماعية التي نشأ فيها، وابن سلام خاض في ذلك كلّه وتعرّض لكثير من الشعر والشعراء بالنقد والحكم. اذا كان الأدباء قد اکتفوا بملاحظات في النقد، واللغويين قد تعمّقوا في الفهم والتحليل، فإنّ ابن سلام قد درس الأدب وبحث المسائل الأدبية وكان أوّل من نصّ على الإستقلال النقد الأدبي فافرد الناقد بدور خاص حين جعل الشعر صناعة يتقنها أهل العلم بها، مثلما أنّ الناقد الدرهم والدينار يعرف صحيحهما من زائفهما بالمعاينة والنظر. (الزركلي، ٢٠٠٧: ٦ / ١٤٦. ابن نديم، ١٣٤٣ هـ: ق: ١١٣. الصفدي، ١٩٦٢: ٣ / ١١٤. احسان عباس: ٧٨)

١-١ اسئلة البحث:

- كيف ينظر النقاد الحديث الى ابن سلام وآرائه النقدية؟
- هل نال ابن سلام ما وجب ان يناله من النقد والإهتمام من قبل النقاد الحديث؟

٢-١ ضرورة البحث:

ابن سلام ومقامه كصاحب أول اثر نقديّ منهجيّ وصل إلينا ممّا ألفه العرب في النقد والأدب، بحقّه ان يُقدّم من قبل النقاد الحديث الى محكمة نقدية علمية شاملة تسلّط الضوء على دوره في تاريخ النقد الأدبي. كما ينبغي تحليل ما أخذ عليه النقاد الحديث بالنقد والمناقشه.

١-٣ منهج البحث:

والمقال من حيث المنهج فقد طَبّق المنهج التحليلي التطبيقي والمنهج الإستقرائي من خلال تسليط الضوء على الآراء التي قيلت في النقد الادبي الحديث عن ابن سلام.

١-٤ خلفيّة البحث:

أمّا بالنسبة الى الدراسات السابقة لهذا الموضوع رغم أنّه كثيرا ما كتب عن ابن سلام وآرائه النقدية في تاريخ النقد الادبي الحديث، لم يحظ تحليل ما تناول النقاد الحديث عن آراء ابن سلام النقدية بدراسة نقدية مستقلة فيها تستوعب جوانب مختلفة من آرائه النقدية، وأنما نجد مباحث مبعثرة في الكتب الادبية لا تتجاوز صفحة او صفحات قليلة من المعاصرين.

٢ - اصل البحث:

في تاريخ النقد الادبي الحديث ستّة كتب حسب تاريخ الظهور تناول النقد بالتأريخ والمناقشة وكان طبيعياً أن تتعرّض هذه الكتب الى ابن سلام:

٢-١ تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري لطفه احمد ابراهيم:

يفرد طه احمد ابراهيم بحثا خاصا لابن سلام، لأنّه:

- أول من نظم البحث في الأفكار التي سابقتها وعاصرته وعرف كيف يعرضها وكيف يبرهن عليها ويستتبط منها حقائق ادبية في كتابه طبقات الشعراء.

- شارك معاصريه في كثير من الأفكار ولكنّه مَحَصّها وأضاف إليها وصيغها بصيغة البحث العلمي وسلّكها في كتاب خاص هو خلاصة ما قيل الى عهده في الأشعار الجاهلية والإسلامية، زاد على ما قال معاصروه في النقد الفني وفي الأدب.

- أودع كلّ المعارف في النقد كتابا لعلّه اسبق الكتب في ذلك، أودعها على طريقة العلماء وفي عرف منطقيّ قويم.

- أفسح ميادين النقد وهو بذلك أول المؤلفين فيه. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق: ٧٤)

ومما كتبه طه أحمد ابراهيم عن ابن سلام ولاحظه في كتاب " طبقات الشعراء ":

أ- يعتقد أنّ كتاب طبقات الشعراء كتابان، أحدهما طبقات فحول الشعراء الجاهليين والآخر طبقات فحول الشعراء الإسلاميين، وهذا ما يذهب اليه جورجى زيدان. (جورجى زيدان، ١٩٨٢/١٢٣) لأنّ:

- إضطراب المقدمة وما فيها من خلط تشعر بأنّها كانت مقدّمتين أدمجت احدهما في الأخرى، ثمّ أنّ روح ابن سلام في طبقات الجاهلية قويّة عميقة منصرفة أو تكاد الى ما هو من صميم النقد، فأما طبقاته في الإسلاميين فيكثر فيها التاريخ عن جماعة - كجرير والفرزدق والأخطل- وتقلّ فيها روح العلم وفي المقدمة نفسها ما يدلّ على أنّ ابن سلام ألف أوّلا طبقات الجاهليين وهو الراجح.

- أنّ أكثر ما كان يكتب الى عهد ابن سلام بحوث صغيرة ورسائل لا كتب وليس بعيدا أن يكتب ابن سلام بحثا في طبقات الجاهليين ثمّ يثنيه بأخر في طبقات الإسلاميين. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق: ٨٠)

لكن هناك من يعتقد أنّ اسم الكتاب طبقات الشعراء وليس طبقات فحول الشعراء. (البغدادي، ١٩٣١هـ: ٥ / ٣٢٧. ابن رشيق،

١٩٥٥ م: ١ / ٥٤. الانباري، ١٢٩٦: ٢١٦. الحموي، ١٩٣٦: ١٨ / ٢٠٤. العسقلاني، ١٣٢٩: ٣ / ٦. السيوطي، ١٢٨٥هـ: ٢ / ٤٥)

ب- يعرض لاضطراب وضع ابن سلام بعض الشعراء في الطبقات التي هيأها لهم ويعترض على وضع كعب في الطبقة الثانية وأصحاب المعلقات في الطبقات الرابعة وتقديم شعراء في الطبقة الخامسة على شعراء أكثر منهم نباهة وشهرة وهم: عمرو بن كلثوم والحارث بن الحلزة وعنترة وسويد بن ابى كاهل اليشكري.

ثم يعلل طه احمد ابراهيم ويوضح هذا الإضطراب حيث يقول: " ليس من الرأى فى شىء أن يكون الشعراء عشر طبقات وليس ممكن بحال من الفروق بين الشعراء ما يمهد لنا أن نورّعهم على طبقات عشر والخصائص الفنيّة رقيقة متموّجة لا تطيع الباحث الى مثل هذا المدى ". (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق: ٨١)

ج- اعترض عليه بأنّه لم يتعرّض لمكانة شعراء القرى ولم يذكر لنا منزلة شاعر كبير كحسان، هذا الى أنّه أهمل بعض فحول الشعراء كعمر بن ابى ربيعة والطرماح بن حكيم والكميت الأسدى ومكانتهم لا تتكر فى الشعراء الإسلاميين.

د- يعتقد أنّ ملكة ابن سلام الأدبيّة فى تحليل الشعر وتدوّقه لا تكاد تظهر فيما كتب، ملكته الأدبية أضعف بكثير من ملكته العلمية وكان لنا أن ننتظر من ابن سلام تحليلاً للشعر فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد فى الميادين الأخرى ولكننا لا نجدّه يتقدّم فى تذوق الأدب خطوة عن الذين عاصروه او سبقوه، بل لقد نرى له أحيانا كلاما عامّا لا يحدّد ذوقا خاصّا ولا يشعر بتفهّم النصوص على النحو المقنع وقلّما نظفر بشئٍ دقيق حين نتتبع آراء ابن سلام فيما يتصل بالشعر. (المصدر نفسه: ٨٣ . ٨٤)

ربّما يعنى طه احمد ابراهيم بملكة ابن سلام العلمية طريقة وضعه الشعراء فى طبقات عشر وجعل كل طبقة اربعة شعراء وطريقة عباراته الدقيقة وعرضه للشعراء وتقصّيه للمعنى الذى يريده حتى يصل واضحا الى القارئ مع سلامة وجزالة.

أما عن ضعف ملكته الأدبية فلعلّ طه أحمدابراهيم قصد بها الى أنّ ابن سلام لم يتدخّل بذوقه الخاصّ فى اختيار الأشعار، ولكننا قد رأيناه قد تحلّل من المبدأ الذى فرضه على نفسه فى ترتيب الشعراء الطبقات فجعل طبقة لشعراء القرى وأخرى لأصحاب المراثى وثالثة لشعراء اليهود ورابعة للرجال وخامسة للمشيبيين، وعلى أساس التشابه الفنى لا الشكلى. (منير سلطان، ١٩٨٦م: ٢٨)

وقد رأينا ابن سلام يوازن بين شاعر وشاعر ويفضّل احدهما على الآخر، ورأيناه يوازن بين الأبيات المنفردة والقصائد المطوّلة، ويلاحظ الفروق الدقيقة بين النسيب والتغرّز ويفرّق بين جميل وكثير.

هـ- يعتقد ابن سلام أنّ فى الشعر الجاهلى مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه. (الجمحى، ١٩٧٤: ٤). فإذا ادّعى ابن سلام أنّ هناك شعرا موضوعا برهن على تلك الدعوة وتلمّس أسباب وضع هذا الشعر والبواعث التى حملت الناس الى أن يضيفوا الى الجاهليين ما لم يقولوه وهو يرجع ذلك الى سببين:

- العصبية فى العصر الإسلامى وحرص كثير من القبائل على أن تضيف لأسلافها ضروبا من المكانة والمجد.
 - الرواة وزيادتهم فى الأشعار، ولم يذكر ابن سلام ما حملهم على ذلك ولكنّه يكتفى بذكر مثالىين للرواة المتريّدين: داود بن متمّم وحمّاد الراوية، الذى كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار فى كثير من المواضع. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨م: ٧٧)
- وقد ألمّ علماء القرن الثانى بقضية الرواة المتريّدين. (البغدادي، ١٩٣١: ٣٧٧. الإصفهاني، ١٩٥٨: ٥ / ٤٧. المرزبانى ١٣٨٥: ٣٧. الأصمعى ١٩٥٣: ٢٢)، ولكن ابن سلام استطاع أن يعرضها عرضا طبييا ويحدّد اسبابها، بل ويقدم العلاج الذى يراه ناجعا.

لكن بالرغم من تحزّى ابن سلام وتحزّزه واجتهاده فى تخليص الشعر الصحيح فقد انطلى عليه بعض زيف النقلة مثل ما نسب الى يعصر او سعد ومالك ابني زيد مناة. (زغلول سعد، ٢٠٠٠م: ١٠٣)

هنا سؤال يطرح نفسه، هل نال عرض ابن سلام لقضية الشعر المصنوع من قبل النقاد ما يجب أن يناله؟ لقد قمت فى ميدان المعركة والنقد وحصلت على النتائج التالية:

- تحت رؤية القرآن لمصطفى صادق الرافعى: فى هذا الكتاب شتائم وقذائف وسباب على الرغم من المعلومات القيّمة، وذلك لأنّ ابن سلام أستخدم وسيلة لتوكيد ادّعاء طه حسين واستغلاله أقوال ابن سلام لمصلحته فى الظهور بمظهر المفكر المبتدع.

- نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد الخضري الحسين: لم يقدم لنا هذا الكتاب شيئاً يذكر عن ابن سلام وآرائه النقدية حول الشعر الجاهلي.
- نقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدى: لقد رجع الى ابن سلام مرة في ص ٦ واخرى في ص ١٠١ ولم يناقش موقف ابن سلام ولم يحلل مجهوده.
- الأدب العربي وتاريخه لمحمد هاشم عطية: حاول أن يعطى ابن سلام حقه ولكنّه عمّ عبارته وجعلها تعلق في سماء المعركة ولم تتدخل في التفاصيل، شاهداً بأنّ خير ما وضع في ذلك الوقت -العصر العباسي - طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وقد أتى في صدره على أهمّ النظريات الأدبية التي اتخذها المتأدّبون أمامهم في البحث ويفصلون إجمالها ويطولون فيها وهم يظلمون الناس حين يزعمون أنّهم يأتون بشيء جديد في الأدب.
- النقد التحليلي لكتاب في الادب العربي لمحمد احمد الغمراوي بمقدمته التي كتبها الأمير شكيب ارسلان: لقد انصاف لابن سلام ويقدم منهجه اساساً على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء لابن سلام وكتاب في الأدب الجاهلي لطلح حسين، وحلّل دور ابن سلام في هذه المعركة وسلط عليه الأضواء معطياً إيّاه حقه ولم يجنح للسبّ والطعن ولم يبايز بالألقاب ولكن في أسلوب علمي دقيق وعرض تحليلي واضح.

٢-٢ النقد الادبي لأحمد امين:

الكتاب الثاني حسب الظهور في تاريخ النقد الأدبي الحديث هو كتاب احمد امين، فبعد ان يتحدّث في جزئه الأول عن النقد في أوربا وتطوّره ومدارسه، يتطرّق في جزئه الثاني الخاص بالنقد الادب العربي الى ابن سلام حيث يقول:

"ولعلّ اقدم ما وصل الينا من كتب النقد كتاب طبقات الشعراء لمحمد ابن سلام الجمحي المتوفى ٢٣١ هـ وهو ايضا بصري، كانت له معارف واسعة في اللغة والأدب والنحو والايخبار حصلها على عصره.... ثم يقول: وكان دقيقاً في تعليقه انّ الشعر ليس كثيراً في مكة لانه على تعبير اليوم لم يكن بها بواعث تهيج العاطفة وهو تعليق كما ترى دقيق وكان من مميزاته محاولة ترتيب الشعراء وجعلهم طبقات". (احمد امين، ١٩١٣م: ٤٣٨)

كان هذا نصيب ابن سلام في كتاب احمد امين، لم يحلّل مجهوده ولم يتطرّق الى آرائه النقدية، غير انه يشهد لابن سلام محاولة تعليق قلة وجود شعر في بيئة كمكة وكثرته في بيئة اخرى كالمدينة، وكان ينبغي لنا كأحمد امين أن يتطرّق الى ابن سلام وآرائه النقدية اكثر من هذا النصيب القليل.

٣-٢ في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية لطلح الحاجري:

لم نجد في هذا الكتاب الثالث حسب الظهور تاريخياً، دراسة مستقلة ومستوعبة جوانب مختلفة لآراء ابن سلام النقدية، واقتصر على الإستشهاد من الكتاب فقط، بعيداً عن دراسته والتعريف بصاحبه.

٢-٤ دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث لبديوي احمد طبانة: اذا انشغل كتاب طه الحاجري عن ابن سلام بأشياء اخرى وقدم لنا احمد امين لمحة خاطفة عن ابن سلام وميزته، فإنّ بدوي احمد طبانة قد عرض لنا في الفصل الرابع ابن سلام وكتابه في اسلوب بسيط ومن تقديم دقيق ونقد رقيق. يمكن ان نلخصها كالتالي:

أ- يعتقد بدوي احمد طبانة أنّ كتاب طبقات الشعراء كتابان احدهما في طبقات الشعراء الجاهليين والثاني في طبقات الشعراء الإسلاميين، لانّ ابن سلام يقول: " فنقلنا ذلك الكلام في الشعر وقول العلماء فيه الى خلف ابن حيان ابى محرز الأحمر اجمع اصحابنا انه كان افرس الناس ببيت شعر واصدقهم لساناً، كئنا لانبالي اذا اخذنا عنه خبراً أو انشدنا شعراً الآ نسمعه من صاحبه". (ابن سلام، ١٩٧٤: ١٢٩) لم يذكر ابن سلام لنا شيئاً عن جواب خلف الأحمر أو تعليقه على تلك الأقوال التي نقلت اليه وسياق الحديث يشعر بانّه كان له رأى وانّه كان له تعقيب والآ كان كلام ابن سلام عبثاً ولغو ولا طائل وراءه. (بدوي احمد طبانة:

١٩٦٠م: ١٢٦. ابن نديم، چاپ دوم: ١٠٥)

ب- هو أول من قرّر أنّ أول الشعر بيت وبيتان، وأنّ القصائد طوّلت على عهد عبد المطلب وهشام بن عبد مناف. تبدو آراء ابن سلام في هذا الشأن على قدر من الإضطراب، فبعد ان بيّن أنّ تقصيد الشعر إنّما كان على عهد عبد المطلب وهشام بن عبد مناف بما اغدقا على الشعراء المذّاحين عاد قدّم تصوّرا مختلفا لهذا الامر اذ جعل الرثاء الذي ينشأ عن الوقائع والتأثرات والدماء مبعثا لتقصيد القصيد وإطالة الشعر. (العاكوب، ١٤٢١هـ: ١١٣ - ١١٤. منيف موسى ١٤٠٥هـ: ٤٦)

ج- تنبّه ابن سلام الى بعض العوامل الفعّالة التي تدفع الشعراء الى النظم وفي مقدمتها الحروب. يتفقّه في هذا الموضوع ابن رشيّق حيث يقول: " وكان الكلام كلّه منثورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب أعرافها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأتجاد وسمحاتها الأجواد لتهزّ أنفسها الى الكرم وتدلّ ابنائها على حسن الشيم فتوهّموا أعرابهم جعلوها موازين الكلام فلما تمّ له وزنه سمّوه شعرا لأنهم شعروا به، اي: فطنوا". (ابن رشيّق، ١٩٦٨م: ١/ ٢٠) انتبه الجاحظ فيما بعد الى هذه الفكرة لكنّه ردّ مذهب ابن سلام في هذا الشأن وينفي ارتباط الشعر بعوامل تقع خارج نفس الإنسان وجبّلته ككثرة الحروب ومغالبة الأعداء أو خصوبة المكان وطيب الغذاء أو السكنى والإستقرار، بل يرى أنّ الشعر حظّ يقسمه الله لمن شاء من عباده. (الجاحظ، ١٩٦٩م: ٤/ ٣٨٠ - ٣٨١)

د- حديثه عن تنقل الشعر في القبائل، إنتبه ابن سلام إلى قضية ذات شأن تتصل بتاريخ الشعر العربي وهي أنّ هذا الشعر قد تنقل في قبائل العرب فكان شعر الجاهلية في ربيعة ثم في قيس ثم آل بعد ذلك الى تميم وذكر علة بدء الشعر في ربيعة وأولهم المهلهل الذي كان أول من قصّد القصائد وذكر المواقع في قتل أخيه كليب.

هـ- يعتقد أنّ الكتاب أقدم وثائق النقد المدوّنة، فيه كثير من آراء الأدباء واللغويين التي انتفع فيها فيما بعد من كتبوا في نقد الأدب أو في سير الشعراء، كالأمدي صاحب الموازنة بين الطائيين وابي فرج الإصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وحسب كتاب ابن سلام أنّ يكون جماع القول في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام.

و- ينتقد بدوي أحمد طبانة ابن سلام ويلحظ عليه عدم ذكره للشعراء الذين عاصروه كمروان ابن أبي حفصة وأبي نواس وبشار ومسلم بن الوليد وأبي تمام، ثمّ يقترح عذرا له بدلائل:

- أنّ الشعراء الذين عاصروهم ابن سلام لم تكن الأقوال فيهم قد تبلورت بعد، بحيث يعتمد عليها.
- لعلّ أولئك العلماء كانوا يخشون ممّا قد ينالهم من أولئك الشعراء من الهجاء المقذع اذا عرضوا لشعرهم بالنقد والتحليل والإشارة الى موارد الضعف فيه.

- أنّ طبانة العلماء ومعاصري ابن سلام والسابقين له يعتبرون أنّ العصر الذهبي للغة والشعر هو الجاهلية وصدر الإسلام مع العصر الأموي، وشعراؤهم قادة الشعر وقولهم هو المنبع والمصدر والشعراء بعدهم عيال عليهم. (بدوي احمد طبانة، ١٩٦٠م: ١٢٦ - ١٤٣)

٢-٥ النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور:

يحدّثنا محمد مندور عن الأطر الكبيرة التي اتّخذها ابن سلام هيكلها في تقسيمه الشعر كنظرتة اليه من حيث الزمان والمكان والفنّ الأدبي، ثم يتحدّث عن فطنة ابن سلام الى كثير من الشروط التي يجب أن تتوافر في الناقد مثل الدربة والممارسة والذوق الأدبي، وكذا انتباه ابن سلام الى ضرورة صحّة النصوص وصحة نسبتها، يقول: " ولا تقف الروح العلميّة عن ابن سلام عند ملاحظة تلك الظواهر، بل تمتدّ الى تفسيرها حتى لنراه يفصل الأدلّة العقليّة والنقلية على انتحال الشعر، كما اتّضح عند تفسيره الظواهر الأدبية كقلّة الشعر في أماكن دون أماكن ثمّ قياس أساس المفاضلة على الكثرة والجودة ". (مندور، ١٩٦٦: ١٩)

ما أخذ محمد مندور على ابن سلام، والردّ عليه:

أ - ينتقده في تفضيله الكثرة على الجودة، يقول: " واما عن تفضيله الكثرة على الجودة وتعدّد الأغراض الشعريّة ففي ظننا أنّه من الواضح أنّ الكم ليس مقياسا صحيحا لقيم الشعراء ". (المصدر نفسه: ١٨ - ٢٠)

يمكن الردّ عليه بأنّ ابن سلام كان يقصد الكثرة الجيدة من الشعر او الجيد الكثير منه لا يفرق بين كميّة الشعر وكيفيّةه، لأنّ الشاعر الحقّ هو كثير الشعر جيده، لا كثيره وغنّه ولا جيده وقليلة، وابن سلام مع تصويره لهذا المبدأ لا يظلم الشاعر قليل الشعر وجيده، فهو يعترف بأنّ طرفه وعبيدا وعلقمة وعديا من الفحول الشعراء وموضعهم مع الأوائل وانما أحلّ بهم شعرهم بأيدي الرواة. (ابن سلام، ١٩٧٤: ١٣٧)

ب- اذا كان ابن سلام مصيبا في نظرتة الى إنتحال الشعر فأنّه أقلّ اصابة فيما عدا ذلك، فتفسيره لندرة شعر بعض القرى مردود لأنّ الشعر ليس كلّه في الحرب ولا هو قاصر عليها بل أنّ فيه مصادرة على المطلوب، فليس بصحيح أنّ الشعر كان نادرا في مكة مثلا، خصوصا بعد الإسلام. (مندور، ١٩٦٦: ٢١)

يرفض محمد مندور مبدأ تفسير القلّة على اساس الارتباط بالحرب، لكن يجب أن نربط الحرب بالعرب الجاهليين لنفهم طبيعتها والمقصود بها، فالحروب في الجاهليّة كانت شبه مستمرة على مستوى الجزيرة العربيّة كلّها، ما بين حيّ وحيّ وقبيلة وقبيلة، وفي الحرب يظهر لون الشعر الحماسيّ لدفع المحاربين الى الجهاد، وفي الحرب تهيج كوامن النفس فتجيش الشاعرية مندفعة بحبّ الشاعر لوطنه وبتقديره لدوره في مجتمعه.

ج- اسقط ابن سلام من حسابه لسبب لا نعرفه الكثير من الغزليين وعلى رأسهم عمر بن ابي ربيعة الذي لم يذكره اصلا. (المصدر نفسه: ٢١)

و اما حكمه على اسقاط ابن سلام الكثير من الغزليين لا ينطبق على الواقع ونحسبه حكما جائرا، فقد ذكر ابن سلام كثيرا وابن قيس الرقيّات والأحوص وجميلا ونصيبيا وغيرهم من الغزليين. (ابن سلام، ١٩٧٤: ٥٤)

مما يجب أن يُذكر أنّ الروايات مضطربة في تحديد وفاة عمر بن ابي ربيعة، يقول ابوالفرج أنّه عاش سبعين سنة وأنّه ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب، ومعنى ذلك أنّه توفي سنة ٩٣ هـ (ابوالفرج، ١٩٥٨: ٧١/١) اي سنة ٢٣ للهجرة، في عهد وليد بن عبدالملك، وهناك رواية تزعم أنّ سليمان بن عبدالملك (٩٦ - ٩٩) نفاه الى طائف، وأخرى تزعم أنّ عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١) نفاه الى دهلك (المصدر نفسه: ١٧)

د- أنّنا نلاحظ أنّه يورد ما يختاره للشعراء المختلفين أو يورد مطالعه ولكنّه لا يحلّله ولا ينقده ولا يظهر فيه من جمال أو قبح، وإنّ حكم على بعض القصائد أو بعض الشعراء فأحكامه في الغالب هي الأحكام التقليدية التي كانت الألسن تتداولها عن السابقين، كقوله عن ابي ذؤيب الهذلي: " أنّه شاعر فحل لا غميرة فيه ولا وهن "و عن عبيد بن الحساس: " أنّه حلو الشعر رقيق حواشي الكلام " وأمثال ذلك مما لا تحديد فيه ولا تفصيل. (مندور، ١٩٦٦: ٢٨، ٣٠، ٣٨)

لكن اذا راجعنا الى ابن سلام وآرائه النقدية نجده يوازن بين أقوال الشعراء، وما قام به ليس التحليل ولكنّه الخطوة الاولى للتحليل، ومن حلّل من النقاد بعد ابن سلام اعتمد على أقواله وأقوال غيره من العلماء والنقاد.

و إذا نظرنا إلى ابن سلام في إطار عصره لا نطالبه بأكثر ممّا فعل، كما ليس من الأنصاف أن نطالبه أن يتقدّم بالنقد الأدبي الفنى الى الأمام، لأنّ ابن سلام قد وضع البنات الاولى للنقد المنهجى على اساس علميّة من حيث توجيهه الى تحرير النصوص وتخليص الشعر من الدخيل.

٢-٦ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد:

في سنة ١٩٥٦ ظهرت دراسة ناصرالدين الأسد التي توفّر لنا المصادر الأساسية في البحث عن بعض جوانب العصر الجاهلي وكان نصيب ابن سلام في هذا المرجع كبيرا.

يقول ناصرالدين الأسد:

" أورد ابن سلام في طبقاته قول عمر بن خطاب، كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه ثم عقب عليه بقوله: فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الشعر وجاءت الفتح

واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتال فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منهم كثير. كلام ابن سلام هذا ثلاثة أسطر: آخرها حق، موسطها باطل، وأولها يحتاج الى فصل بيان يوضحه، أما الحق الذي لا مرية فيه فقله: فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير، وأما الباطل الذي لم نعد نشك في بطلانه وفساده فهذا هو التعميم الواسع في قوله: فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب". (الأسد ناصرالدين، ١٩٤: ١٩٨٨)

يأتي ناصرالدين الأسد بثلاثة أمثلة من كتاب ابن سلام تنقض القول الذي ينص أنّ العرب لم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، لكن حسبنا أن نورد مثالا واحدا فقط:

"فقد عاب ابن سلام بعض علماء قبله - اي علماء القرن الأول الهجري- باكتفائهم بالأخذ عن الدواوين المدونة والكتب المكتوبة فنبرهم بأنهم صحفيون، حيث يقول: قد تداوله قوم من كتاب الى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء وليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحفية ولا يروى عن صحفى". (المصدر نفسه: ١٩٤)

و قد قال عقب قوله السابق الذي انكر فيه هذه المدونات:

"و قد كان عند النعمان بن منذر منه ديوان فيه اشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به صار ذلك الى بنى مروان او صار منه". (المصدر نفسه: ١٩٥)

اما الشطر الثالث الذي يحتاج الى فصل بيان يوضحه فهو قوله:

" فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزو الفارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل". (المصدر نفسه: ١٩٤)

يقول ناصرالدين الأسد لابّد لنا أن نتساءل هنا:

- احقّ أنّ العرب قد لهوا عن رواية الشعر في هذه الفترة من حياتهم فغفلوا عنه ونسوا ذكره وأضربوا عن روايته؟

- واذا كان كذلك فكم من السنين او من القرون بلغت هذه الفترة؟

- ثم أ من الحقّ أنّهم حين راجعوا روايته اذا سلّمنا بانقطاعهم عنها ألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل؟ (المصدر نفسه: ١٩٥)

و للإجابة عن هذه الأسئلة لابّد لنا من استقراء تاريخي نتبع فيها حياة الرواية عند القدامى:

اذا ما بدأنا بعهد بنى امية وجدنا أنّ بعض القوم آنذاك كان يرى العلماء العارفين بالشعر الجاهلي قد ماتوا ونحن نحسب أنّ هذا الضرب من الكلام موجود في كل عصر وانه لا يصحّ أن يحمل محملا لفظيًا قاطعا وإنما هو ضرب من التحسّر على الماضي وتمجيد القدماء والإقرار بضعف الحاضر وعجزه اذا ما قيس بالقديم السابق عليه، لما استقرت الحال بهم لم يرجعوا الى ديوان ولا الى كتاب مدون، لماذا؟ لأنّ الدواوين كانت موجودة والكتب كانت موجودة ولكنّها غير موثوق بها، فالأفضل الرجوع الى الرواة والأعراب والقراء، واين هم هل هم فنوا كلهم؟ لا، هلك منهم بالقتل والموت من هلك فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عنهم منه كثير.

هذه القضية بهذا الشكل تخدم قضية ناصرالدين الأسد، لأنّه يحاول اثبات أنّ التدوين موجود وابن سلام يقول له: نعم كان موجودا، والرواية ايضا كانت موجودة ولكنّ العرب لم تكن تثق بالمدونات، ذلك للتصحيح الذي هيمن عليها ولشدة ثقهم بالذاكرة القويّة. والمسألة لها مثل وهو تدوين المصحف الشريف يقول ابن أثير: " نزل القرآن منجّما في بضع وعشرين سنة فلما انتقل الرسول - ص - الى جوار ربّه وقامت حروب الردّة وقُتل فيها أكثر القراء من الصحابة وخاصّة في يوم اليمامة حيث قُتل منها زهاء سبعين، هال هذا الأمر عمر بن الخطّاب وكان مستشار ابي بكر وساعده الأيمن وذهب الى ابي بكر وقال له: إنّ القتل قد كثر واستحّر بقراء القرآن يوم اليمامة واني أخشى أن يستحّر القتل بالقراء فيذهب من القرآن الكثير واتي أرى أنّ تأمر بجمع القرآن، فأمر ابوبكر زيد بن ثابت فجمعه من الرّزاق والعسب وصدور الرجال ". (ابن أثير، ١٣٠١ هـ: ٢ / ٤١. الطبري: ٢٨٤. البلاذري، ١٩٦٦ م: ٢٣١) والقضية واحدة

لا تختلف سوى في قدسيّة القرآن واهميّة جمعه وجوهريته مع ثانويّة جمع الشعر وعدم التزمّت في التقريب عنه والجرى وراء مظانّه ومهما دونه وسجلناه فلن نأتى على نهايته.

وإذا قلنا أنّ الادباء اقتفوا اثر الفقهاء في الإهتمام بالإسناد وأشخاص النقلة للشعر لما ذهبنا بعيدا. (السيوطي، ١٣١٦ هـ: ١ / ٥، الرافعي، ١٩٤٠م: ١ / ٢٥٩)، ولكنهم لم يبلغوا في ذلك. كما يقول احمد امين - مبلغ المحدثين في دقة التحريّ والنقضيّ لأنّ الامر لا يصل في الأدب الى حساسيته في الحديث. (احمد امين، ١٩١٣م: ٢ / ٢٥٩ و ٣٥٨)

إذا اردنا أن ننقض هذا القول على ابن سَلَمَ فعلينا أن نبحت في حدود عهد الرسول - ص - ثم عهد الخلفاء الراشدين بعده، حيث كانت الجزيرة في شغل شاغل عن الشعر وروايته. والأحداث التي نشبت بين كلّ من امام على - ع - ومعاوية كان ميدانها العراق لا الجزيرة العربية، فإلى سنة ٣٠ هـ نبحت عن نقض قضية ابن سَلَمَ وردّ قوله عليه، أمّا ناصرالدين الأسد فجعل رده يبدأ بمعاوية وعصره وعبدالملك والحجاج وغيرهم، والإستقرار بدأ يضرب أطنابه منذ عهد عثمان الذي بدأ بقتل عمر سنة ٢٣ هـ، فكيف نبحت عن ارجاء الدولة الأموية عن شواهد لتؤكد لنا أنّ المسلمين لم يشغلوا عن الشعر في عهد صدر الإسلام؟ وإذا روى ابوبكر وعمر وعثمان والصحابه الشعر فهل معنى ذلك أنّ الناس تركت الحروب والفتوح والغنائم والسبايا وانهمكت في الشعر؟ لقد كان هناك شعر ونستطيع أن نشير اليه في هذه الفترة باللذات ولكن لم يكن همّ العرب آنذاك. (منير سلطان، ١٩٨٦ م: ٢٩٧)

هذا وابن سَلَمَ دقيق في ألفاظه ويحاول تحديد المعنى باستخدام الألفاظ المؤدية له بوضوح وقد استعمل فعل (تشاغل) ولم يقل (امتنع) العرب عن رواية الشعر وقال (لهت) عن الشعر وروايته ولم يقل (حرّموه) على انفسهم.

٣- النتيجة:

- إذا نظرنا إلى ابن سَلَمَ في إطار عصره لا نطالبه بأكثر ممّا فعل، كما حاول محمد مندور إذ يطلب منه أن يتقدّم بالنقد الفنيّ، هنا سؤال يجب أن يجيبه محمد مندور: على من يتقدّم وهو أوّل من نعرف ممّن حاول دراسة الشعر والشعراء هذه الدراسة المنهجية في النقد العربيّ؟ ومع ذلك ومع كلّ ما يحتوي الكتاب من مأخذ فإنّ الكتاب قد وضع اللبّات الأولى للنقد المنهجيّ المبنيّ على أساس علميّة من حيث توجيهه الى تحرير النصوص وتخليص الشعر من الدخيل.

- لم ينل عرض ابن سَلَمَ لقضية الشعر الجاهليّ المصنوع من قبل النقاد المعاصرين ما يجب أن يناله، لم يتعرّض احمد امين كثيرا لابن سَلَمَ وكذا لانجد دراسة له عند طه الحاجري، لا يوجد في كتاب مصطفى صادق الرافعي سوى شتائم وقذائف وسباب، ذلك لأنّ ابن سَلَمَ أستخدم وسيلة لتوكيد ادعاء طه حسين، ما يقوله محمد حسين ليس سوى مجرد احساسات مؤلف مسلم حيال كتاب يشعر أنّه سيهزم الدين وهلمّ جرا، غير أنّ محمد الغمراوي لقد انصاف لابن سَلَمَ ويقدم منهجه اساسا على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء وكتاب في الأدب الجاهلي لطله حسين.

- ليس من الإنصاف أن نطالب ابن سَلَمَ أن تكون ملكته الأدبية فيما كتب أقوى من ملكته العلمية، كما ليس من المعقول أن ننظر منه تحليلا فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد في الميادين الأخرى كما طالب منه طه احمد ابراهيم، لأنّ النقد الادبيّ المنهجيّ يومئذ كان يخطو خطواته الاولى.

المصادر والمراجع:

- ابن اثير، الكامل، ط الأزهرية القاهرة ١٣٠١هـ.
- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مطبعة مجلس المعارف النظامية، ١٣٢٩-١٣٣١ هـ - حيدرآباد- دكن
- ابن رشيق، العمدة، ط التجارية، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٦٨م
- ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، طبعة القاهرة ١٢٩٦
- ابن نديم، محمد ابن اسحاق، الفهرست، ترجمه رضا تجدد، چاپ دوم، چاپخانه بانك بازرگانی ايران
- ابن هشام، السيرة النبوية، ط الحلبي ١٩٣٦ م
- احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دارالثقافة بيروت لبنان، الطبعة الرابعة
- احمد امين، النقد الادبي، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية ١٩١٣م
- احمد امين، ضحى الاسلام، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م
- احمد ضيف، مقدمة لدراسة البلاغة، الطبعة الاولى، مطبعة السفور بالقاهرة ١٩٢١م
- الأسد، ناصرالدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة السابعة دارالمعارف بمصر ١٩٨٨
- الإصهاني، ابوالفرج، الأغاني، طبعة دارالثقافة بيروت ١٩٥٨
- الأصمعي، فحولة الشعراء، المطبعة المنيرة بالقاهرة ١٩٥٣م
- بدوي احمد طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى القرن الثالث، الطبعة الثالثة، طبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٠م
- البغدادى الخطيب، تاريخ بغداد، طبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١ هـ
- البلاذرى، فتوح البلدان، ط ليدن ١٨٦٦م
- الجاحظ، الحيوان، ط ٣ تحقيق عبدالسلام هارون، دار احياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٩م
- الجمحى، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ط المندى ١٩٧٤م
- الجمحى، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، ليدن بريل ١٩١٣م
- جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دارالجيل، بيروت ١٩٨٢
- الحاجرى طه، فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية، طبعة رويال، الإسكندرية، ١٩٥٣ م
- حموى، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق احمد فريد رفاعى، دارالمأمون، ١٩٣٦-١٣٥٥
- الخضرى الحسين، محمد، نقض كتاب فى الشعر الجاهلى، ١٣٥٥هـ
- الرافعى، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، الطبعة الثامنة، دارالكتاب العربى ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م
- الرافعى، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، طبعة الإستقامة، القاهرة ١٩٤٠م
- الزبيدى، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد ابى الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٤م
- الزركلى، خيرالدين، الأعلام، الطبعة السابعة عشرة، دارالعلم للملايين، بيروت ٢٠٠٧م سعد، محمد
- زغول، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة عند العرب حتى القرن الرابع الهجرى، منشأة المعارف اسكندرية ٢٠٠٠م
- السيوطى، المزهر فى علوم اللغة وانواعها، مطبعة السعادة، مصر ١٢٨٥هـ
- السيوطى، الأشباه والنظائر، ط حيدرآباد الدكن ١٣١٦ هـ
- شاكر، محمود محمد، قضية الشعر الجاهلى عند ابن سلام، رقم الطبعة ١، مطبعة المندى ١٩٩٧م
- الصفدى، صلاح الدين خليل بن ابيك، الوافى بالوفيات، انتشارات جهان، تهران، ١٣٨١ق ١٩٦٢م
- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، طبعة الحسينية القاهرة، بدون تاريخ

- طه احمد ابراهيم، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري، الطبعة الاولى، دارالقلم بيروت ١٤٠٨ م
- العاكوب، عيسى على، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، دمشق سورية، ١٤٢١ هـ عطية، محمد هاشم، الأدب العربي وتاريخه، ط العلوم القاهرة ١٩٦١ م
- الغمرأوى، محمد احمد، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٩
- الفاخوري حنّا، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، دار الجيل، بيروت لبنان
- المرزبانى، الموشح، دار الفكر العربي، قاهرة ١٩٦١ م
- مندور محمد، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٦ م
- منير سلطان، ابن سلام وطبقات الشعراء، الطبعة الثانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦ م
- منيف موسى، في الشعر والنقد، الطبعة الأولى، دارالفكر اللبناني، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م
- وجدى، محمد فريد، نقد كتاب في الشعر الجاهلي، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٣٨ م